لنعمل سوياً حتى نوصل اليمن الى 21 فبراير 2014م

عبدربه منصور هادي- رئيس الجمهورية

14 أكتوبر
14 OCTOBER
Email: 14october@14october.com
www.14october.com

قراءة في صفحة من صفحات تاريخ اليمن

المناضل النعمان .. وقصة كفاحه ضد الإمامة

في الثاني والعشرين من أكتوبر سنة 1909م ، ولد الابن السادس للشيخ محمد نعمان ، في قرية ذبحان في قضاء الحجرية تعز المتربعة على ذروة جبل شامخ تلامس هامته السماء وتكلله سحب كثيفة بيضاء . هذه القرية يتوقف عندها التاريخ لكونه سيخرج من معطفها أحد رواد الحرية ، والحركة الوطنية اليمنية إنه الأستاذ أحمد النعمان ، كان والده مثل أهل القرية مطالبه من الدنيا يسيرة ، ولكن هذا الرجل المتواضع ، كانت نفسه تمتلئ بالطموحات العريضة وهي أن يكون أبناؤه من العلماء ، حتى يشعر بالفخر أمام الآخرين من أبناء قريته. و طويت صفحات الأيام ، والشهور ، والسنين ، وتعاقب الليل والنهار ، وكبر الطفل احمد بن محمد نعمان وبلغ من العمر سبع سنوات .

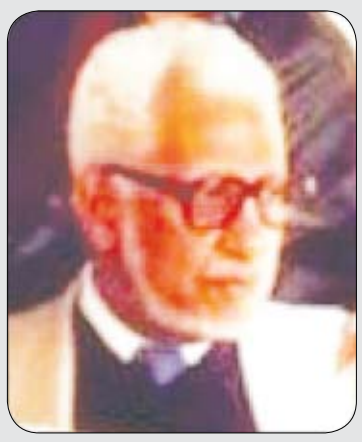

الفقيد أحمد محمد النعمان في آخر أيامه

وفجأة ينتزع من عالمه الجميل الوردي إلى عالم الجد ، والتعب ،فقد ادخله والده الكُتاب ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم. وكان الصبي أحمد محمد نعمان قد ظهرت عليه النجابة وهو صبي فقد تمكن من المتفوقات على أقرانه في الكتاب في حفظ سور القرآن الكريم. وكانت الأقدار تعده أن يكون فارس قرية ذبحان، بل فارس اليمن دون منازع يصارع الاستبداد بمختلف صنوفه وألوانه، كان سلاحه العلم والمعرفة، . وتكونت في نفسه الصغيرة الغضة كرهه الشديد للظلم والظالمين . ولقد رأى ولمس ، عمال ، وجنود الإمام يحيى يسومون الناس العذاب الغليظ ، فيفرضون عليهم الإتاوات، والجبايات المجحفة باسم الإمام ، ومن لم يقدر من أهالي القرية على سداد ما عليه من الضرائب ، فإنه يهلك هو وأهله، ويكون التشرد من نصيبهم من القرية ، كل هذه الصور البائسة والمشاهد المؤلمة طبعت في وجدان الصبي الصغير وأخذت تنمو، وتتضخم في نفسه الصغيرة ، وكانت معه في حله وترحاله ، وعندما شب أحمد نعمان عن الطوق ، وصار شابًا يافعًا حلق بجناحيه الرقيقين إلى سماء الحرية الصافية والنقية العريضة والواسعة ، وظل يحارب ، ويقاوم الظلم ، والجور ، والاستبداد ولم تنكسر له قناة لتبديده من سماء اليمن ، وإزاء هذا ألقى الأستاذ نعمان في غياهب سجون الإمام يحيى الموحشة ، وكان الموت قاب قوسين أو أدنى منه وذلك بعد القضاء على حركة أو ثورة 48م التي كان أحد روادها هو ورفيق دربه رائد الحرية الشهيد محمد محمود الزبيري الذي قتل في ظروف غامضة في جبال برط .

إخوانه

ونقترب إلي دار بيت والد أحمد نعمان لنتعرف على حياته ، أمتلأ البيت بعدد من الأخوان ، والأخوات ، وكان أحمد نعمان السادس من أخوانه في الترتيب ــ كما قلنا سابقا ــ ، ولكنه بات الأول على أخوانه في طلب الدراسة و العلم والمعرفة ، وبعد مراحل في التعليم الديني الطويل صار أحمد نعمان شيخاً جليلاً ، وعالماً كبيراً يشار إليه بالبنان في قرية ذبحان وما جاورها . ويذكر الأستاذ أحمد نعمان اسماء أخوانه وأخواته ، فيقول : « كان قبلي عبد الحميد، علي ، عبد الله ، ونعمان ، أنا السادس من الأطفال الذكور، ومن و رائي أيضًا إناث أذكرهم بالأسماء زبيدة ، فاطمة ، وخديجة، وزينب» .

خطواته الأولى

وكان الصبي أحمد نعمان ، يخطو خطواته الأولى في مشوار حياته يلهو ، ويلعب مع أقرانه الذين في سنه والذين لم يتجاوزوا السابعة من العمر . وفي هذا الشأن ، يقول: « . . . قضيت سبع سنين ولم يكن هناك أي شيء أعمله . كنت ألعب في القرية مع الأطفال . . . وكان يحدث بيننا وبين أبناء القرى المجاورة تبادل الرجم بالأحجار ، يغلبوننا أو نغلبهم» . والحقيقة أنّ الحياة الخشنة ، والقاسية التي كان يعيشها أبناء قرية ذبحان ، وأبناء قرى اليمن بصورة عامة زرعت في نفوسهم الصغيرة قوة الشخصية وعلى تحمل الشدائد ، والصبر على المكاره، والجرأة على اختراق حواجز الصعاب ، . كل هذه الصفات الصلبة التي ذكرناها، كان يتحلى بها أحمد نعمان النابعة من بيئته الوعرة . وكيفما كان الأمر ، فطبيعة حياة القرية هيأته وشكلته ليتصدى لكافة ألوان الظلم بكل صلابة ، وعزم وفضلاً عن ذلك كانت روحه تنزع إلى التململ , والتمرد ، والثورة وأخذت تترعرع وتكبر شيئاً فشيئاً في نفسه . وعندما اتسعت مداركه العلمية ، وتغيرت مفاهيمه للأعراف والعادات والتقاليد ، والأفكار الجامدة ، والخامدة والتي كانت سائدة في قريته بصفة خاصة واليمن بصفة عامة تكشفت أمام عينيه بأنّ بلاده التي كانت تسمى (العربية السعيدة) تعيش في دياجير الظلام الموحش ، وتحكم في ظل إمام مستبد عزلها عن شتى صور الحياة ، والتطور ، والتقدم وأنها صارت في ذيل ركب الحضارة بعد أنّ كانت في التاريخ البعيد تقود ركب الحضارة الإنسانية .

نعمان بك

والحقيقة أنه من المؤثرات المباشرة وغير المباشرة التي أثرت ، وكوّنت شخصية الأستاذ أحمد نعمان في مشوار حياته الأولى هو أنّ أسرته، كانت لها مكانة مرموقة ، ومشهورة في قرية ذبحان. فقد كان جده نعمان الجد الأكبر للأسرة من الشيوخ المشهورين في قرية ذبحان في أواخر حكم العثمانيين لليمن . وتولى أعمام أحمد نعمان مناصب خطيرة ومهمة في عهد السلطنة العثمانية في اليمن بمنطقة الحجرية , والتقى عمه أحمد نعمان ((بك)) السلطان العثماني محمد رشاد في الآستانة. وفي هذا الصدد ، يقول : « وقد كان هذا الجد (يقصد نعمان) يعتبر (عمدة ذبحان)، ويسمى هناك الشيخ نعمان .

وقد أنجب أولادًا هم أبي ، وأعمامي ، تولوا السلطة في هذه المنطقة كلها . وعرفت أسرة بيت نعمان بأنهم مشايخ قضاء الحجرية . وكان أبرزهم عمي أحمد نعمان ((بك)) لأنه اتصل بالآستانة ، وذهب مع مشايخ اليمن إلى السلطان محمد رشاد ومنح لقب ((بك)) « . ويذكر الأستاذ أحمد نعمان بأنه على الرغم من الشهرة العريضة التي اكتسبها جده ووالده وأعمامه في ذبحان ، وقضاء الحجرية ، كانت حياتهم يسيرة ، ومتواضعة كحياة أهل القرية البسطاء ولم يعيشوا في الترف والنعيم ، والبذخ ، كما قد يتصور الآخرون لكونهم كانوا قريبين من العثمانيين في اليمن . وفي هذا الشأن، يقول: « . . . لكن الأسرة كانت تعيش في بساطة، فلا تجدون فرقا بينها وبين الآخرين ، والعيشة عيشة شظف ، مثلاً نتناول في الصباح قطعة من العيش (الخبز) ، ونذهب إلى الكُتاب . . . «. والحقيقة أن تولي أعمامه مسؤولية السلطة في قضاء الحجرية في عهد العثمانيين ، جرت عليهم سخط ، وغضب الإمام يحيى بعد أن تولى مقاليد الحكم في اليمن بعد خروجهم منه سنة 1918م بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى من إنجلترا وفرنسا . وكيفما كان الأمر ، ومن المحتمل أنّ شخصية الأستاذ أحمد نعمان ولدت في نفسه الصغيرة الاعتزاز، والكرامة بالنفس لكون أعمامه كانوا من الشخصيات البارزة في قضاء الحجرية ــ كما قلنا سابقاً ــ بالإضافة إلى روحه المتمردة والقلقة بأنّ يكون الناطق الرسمي لطموحات وتطلعات الناس إلى أنوار فجر الحرية ، والعدالة ، والمساواة في اليمن .

في الكُتاب

والحقيقة أنّ الكُتاب في القرية أو القرى اليمنية كان لها الفضل الكبير بأن خرج من معطفها الكثير من رواد حركة الأحرار اليمنيين ، فقد غرست البذور الأولى للعلوم والمعرفة في عقولهم ، ونفوسهم التواقة والمتعطشة لبزوغ فجر الحرية. وعلى أكتافهم تحملوا مسؤولية الدفاع عن حقوق المظلومين أمثال رائد الحركة الوطنية الأستاذ أحمد نعمان ، ورائد الحرية الشهيد الزبيري وغيرهما من رواد الحركة الوطنية اليمنية الذين آثاروا طريق الحرية في أصعب ، وأعقد ، وأحلك الظروف في عهد الإمام يحيى . حقيقة لقد وصف الأستاذ أحمد نعمان حياة الكُتاب وصفا قاتمًا . وكيف كان الكثير من الصبيان أو النشء يفرون من الكُتاب ليس تهربًا من العلم ولكن فرارًا من القمع الذي كان يسود الكُتاب على يد الفقيه والذي يظن الأخير أنّ الضرب والقسوة هما أفضل وسيلة لتعليمهم مثل السلطات الإمامية التي ترى أنّ أفضل وسيلة لتكميم أفواه الناس ، والخضوع المطلق للإمام وسلطاته المستبدة هو استخدام القوة المفرطة ، وإلقاء الناس في غياهب السجون المظلمة .

من الصور الحزينة

ومن الصور البائسة ، الحزينة التي التقطها لنا الأستاذ أحمد نعمان عن الكتاب. أنّ الصبيان كانوا يدرسون في الكُتاب طوال النهار , وبطونهم خاوية. وعندما يتعطف عليهم الفقيه ، يمنحهم نصف لقمة (الخبز) أو (الكِدمة) ــ وهي نوع من أنواع الخبز ، كان مشهوراً في تلك الفترة في اليمن ــ . فكانوا يلتهمونه بشراهة . ومن الصور الطريفة والحزينة في آن واحد . عندما روى الأستاذ نعمان كيف كان هو أو أخوانه يتضورون جوعًا أثناء تناول وجبة العشاء فيقول : « وبعد الانتهاء من صلاة العشاء ندخل في ليلٍ مظلم ننتظر العشاء . ويأتي العشاء وهو وجبةمن الأَطعمة ... يسمونها ((الفتة)) وهي خبز بالمرق . نتحلق في حلقات ... فيأخذ كل واحد لقمتين أو ثلاثًا حسب شطارته . والمسكين يأكل لقمة واحدة ... ثم يذهب لينام على الطوى». وما أكثر الصور البائسة والحزين والقاتمة التي التقطها الأستاذ أحمد نعمان في مسيرة حياته .

الرحيل إلى زبيد

وبعد ثلاث سنوات في الكُتاب حفظ الصبي أحمد نعمان القرآن الكريم ، وانتقل بعدها إلى ((مكتب)) أفتتحه العثمانيون وهو أشبه بمدرسة ، مستواه التعليمي أعلى من الكتاتيب أو الكُتاب ، تعلم فيه القراءة والكتاب ، ومبادىء الحساب. ومثلما كان الفقيه في الكتابت غليظ القلب على التلاميذ، كان أيضاً (الخوج) أي مدرس المكتب العثماني خالياً من الرحمة والأحاسيس والمشاعر . ومثلما أظهر الصبي أحمد نعمان في الكتاب تفوقه ، حقق أيضًا تفوقًا كبيرًا في المكتب العثمانية أو المدرسة العثمانية بين أقرانه. ولم تتوقف طموحات الصبي أحمد نعمان عند الكتاب أو المكتب العثماني، فقد كانت نفسه متشوقة، ومتعطشة ، ومتلهفة إلى دراسة العلوم الشرعية وفروعها المختلفة في مدينة زبيد مدينة العلم والعلماء ، والفقه والفقهاء . وكيفما كان الأمر، فقد فكر وقرر الأستاذ أحمد نعمان الرحيل إلى زبيد ليكون عالمًا من علماء اليمن أو على اقل تقدير عالمًا من علماء قرية ذبحان في الحجرية . ولم تمض سنوات قليلة حتى نال الاجازة العلمية من علماء مسجد وجامع الأشاعر في زبيد . وعندما أنهى دراسته العلمية هناك ، استقبل في قريته ذبحان بحفاوة بالغة ، وصار عالمًا من علماء قرية ذبحان يأتون أهلها إليه من كل حدب وصوب يطلبون الخير على يديه. وفي هذا الشأن ، يقول الأستاذ نعمان: « رجعت (أي من مدينة زبيد) عالمًا من العلماء لألبس العمامة، والقميص المكمم، والعصا بيدي. وأصبحت أعقد الحلقات» . ويذكر الأستاذ نعمان كيف أنّ الجهل، كان مسيطرًا على عقول ونفوس أهل قريته ، فيقول: « وكان الناس

←

العيد الخمسون لثورة سبتمبر الخالدة

ليكن اليمن الجديد هدفاً لكل الوطنيين المخلصين